للبيت رب يحميه

للبيت رب يحميه

ليس موضوع كتاب ولكنه موضوع الساعة وكل ساعة إلى أن تقوم الساعة... فلولا البيت فى مكة والحرم النبوى فى المدينة ما هبت مصر هبتها ولكنها كانت تستمع إلى صوت كريم كأنه يتردد من جديد.

ومصر تحفظ عنه قوله صلى الله عليه وسلم (اتخذوا من مصر جندا كثيفا فإن فيها خير أجناد الأرض وهم فى رباط إلى يوم القيامة).

أرسلت مصر أجنادها لتصد عن الحرمين... إنها رسالتها التى تحددت فى ذلك اليوم البعيد... إنه دورها إلى (يوم القيامة) منذ قال الرسول الكريم وكأنه حدد هذا الدور الذى لم تتخل عنه مصر منذ خاضت موقعة الصوارى وهى حديثة عهد بالإسلام... والإسلام حديث عهد بالدولة والسياسة... فكان النصر حاسما وعلامة طريق.

وتوالت وقفاتها ومواقفها، فى (حطين) و (عين جالوت) ... وعند انحسار الإسلام من الأندلس وآوى علماؤه إليها كما آل إليها من قبل (الخليفة العباسى) الذى حملته من بغداد بعد أن داهمها هولاكو ودمرها تدميرا... حتى كتبها ألقاها، جاهلا، فى نهر دجلة لتعبر عليها خيوله. فلاذ الكتاب والعلماء بمصر.

وإلى اليوم نصف تراث الإسلام فى مصر، والنصف والآخر موزع فى بلاد العالم، الأخرى، شرقا وغربا.

قبل أن أتكلم عن إكرام الله البيت، أثبت هنا لمحة من تاريخه... يقول الأستاذ البتنونى فى (الرحلة الحجازية) التى صحب فيها الخديوى عباس الثانى منذ قرن أن الحرم المكى كان على حدود المطاف الآن فلما كثر المسلمون زاد فيه عمر وعثمان رضى

الله عنهما شيئا مما اشترياه من الدور التى كانت حوله وزاد فيه عبدالله بن الزبير عندما أعاد بناء ما تهدم من الكعبة فى الحرب التى دارت بينه وبين الأمويين.. وزاد فى البيت، الوليد بن عبدالملك وهو أول من نقل إليه أساطين الرخام. ولما حج الخليفة محمد المهدى سنة مائة وستين هجرية رأى أن البيت ليس فى وسط المسجد فاشترى كثيرا من البيوت خاصة فى الجهة الشرقية القبلية وزادها فى المسجد.

وفى سنة ٨٠٢ احترق الرواق الشرقى، فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه... وصار تعمير البيت سنة استنها ملوك مصر ومن أبرزها ما قام به السلطان قايتباى.

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريبا) وفى وسطه (يميل الى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة. وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون مترا، وطول الذى يقابله وهو فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا، وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية... والذى يقابله وهو الذى فيها باب إبراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفا وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة أى ما يربو على أربعة أفدنة... هذا فى القرن التاسع عشر وقد تضاعفت المساحة مرات إلى يومنا هذا... وللحرم اثنان وعشرون بابا منها ما له مدخل واحد ومنها ما له مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلا.

وهذه الأبواب ثمانية فى الجهة الشمالية وهى : باب الدريبة وباب المدرسة، وباب الحكمة، وباب الزيادة، وبجواره إلى الغرب باب القطبى، وباب الباسطية، وباب الزمامية ثم باب عمرو بن العاص.

ويلى هذا من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمرة وباب إبراهيم ثم باب الحزورة ويليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب: أولها باب أم هانى، وباب العجلة (ويسمونه باب التكية) وباب الرحمة وباب أجياد أو السنبلة، وباب الصفا، وباب بنى مخزوم ثم باب بازان.

ويلى ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهى: باب بنى هاشم أو (باب على)، وباب العباس وباب النبى، وباب السلام وهو الذى يدخل الحاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم.

وفى المسجد ست منارات إحداها مصرية

وبهذه المناسبة يحكى الأستاذ البتنونى أنه شاهد فى الحرم بعض المصريين يستعمل البوصلة التى عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة، ولا يمكن أن تؤدى وظيفتها إلا فى البلاد التى على اتجاه مصر من الكعبة، أما إذا وضعت مثلا فى طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فإنها لا تؤدى وظيفتها بتاتا.

وزوايا البيت الخارجية تسمى : الأركان.

ويرى الطائف بالبيت فى الحائط الغربى لوحة كتب عليها (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ومن الطريف التعليق الذى يلى الآية وهو (تقرب إلى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المشرف، العبد الفقير إلى الله تعالى الملك الأشرف أبو النصر برسباى خادم الحرمين الشريفين).

وفى الجدار الشرقى لوح مكتوب عليه (أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباى عام أربع وثمانمائة من الهجرة).

وبجانب الباب على يسار الداخل منضدة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الأخضر يوضع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو فى الأطلس الأخضر المزركش بالقصب، يأتى إليها سنويا من مصر مع الكسوة الشريفة.

وقد كانت الكعبة قبل الإسلام موضع احترام أهل الكتاب بل كانوا يتعبدون فيها وكان لهم فيها صور وتماثيل. لقد أجمع الناس على اختلاف دياناتهم على احترامها وهذا فى بابه، ظاهرة لا نظير لها باستثناء بيت المقدس.

وقد بلغ إجلال الناس للكعبة أن جعلوا لها حرما من جميع جوانبها واسع الأطراف لا يدخله الإنسان إلا وهو محرم وكل من دخله صار آمنا.

يقول الله تعالى: (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم).[1]

وقد امتدت الحماية، كرامة للبيت، إلى أهل مكة ومن دخلها... فقديما قامت الأحلاف لرفع الظلم عن من بمكة أو من دخلها من غير أهلها. وأشهر هذه الأحلاف

---

(١) العنكبوت ٦٧.

(حلف الفضول) وقد حضر هذا الحلف الرسول صلى الله عليه وسلم... إذا اجتمع إليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو عبدالعزى وبنو زهرة وبنو تميم.

ولقد بلغ من شأن الكعبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها. وكانت أشهر الحج عندهم شوالا وذا القعدة وذا الحجة. وكانوا يحرمون الشهر الذى يكون فيه الحج وهو ذو الحجة والذى قبله لأنه وسيلة إليه، والذى بعده لأنه تابع له لأن الحاج كان يسافر فيه إلى بلاده فوجب أن يكون فيه آمنا على نفسه وماله. ونرى ذلك فى أسماء الشهور نفسها فذو القعدة يعنى الشهر الذى يقعدون فيه عن الحرب وذو الحجة هو شهر الحج، والمحرم هو ما حرموا فيه القتال. وكانوا يحرمون أيضا شهر رجب ويسمونه شهر الله الأصم أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث.

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفرد لعزلته عن الأشهر الحرم الأخرى. وربما كانوا يستعملون رجبا لحجهم الأصغر أى العمرة فقد جاء فى تفسير الألوسى لقوله تعالى (الحج أشهر معلومات) أنه الحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة ويسمونه الحج الرجبى.

وحدث مرة وحارب العرب أو تحاربوا فى هذه الشهور الأربعة فأحسوا بعقدة الذنب وانعكس هذا فى تسميتهم الحروب الأربعة التى وقعت: الفجار.

وحين جاء الإسلام زاد الكعبة تشريفا حين جعلها فى السنة الثانية للهجرة قبلة المسلمين وكانوا، قبلا، يولون وجوههم شطر بيت المقدس. فنزلت الآية الكريمة : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

ومنذ ذلك اليوم تنزل الكعبة من نفوس المسلمين أكرم منزل مهما اختلفت مذاهبهم وفى أى مكان يكونون. وفيها يصلون وراء أى إمام كان.

بل أن فى اللغات الأوروبية قول متداول فى حالة تقديس إنسان الشىء: His Mecca

فى هذه الآية تكريم رفيع للكعبة فهى ليست قبلة محدودة بل هى قبلة لجميع المسلمين فى جميع البلاد والأرجاء... وليس جامعا أكبر من هذا وليس رباطا أعمق من هذا تعجز الكلمات عن الإحاطة بهذه الدلالة. إن فى وقفتهم وراء أى إمام فيها، دون نظر

إلى جنسية أو لون أو ثراء مما يتمايز به الناس فى غيرها من الأمكنة، ظاهرة لا توجد فى دين آخر حتى أن الغربيين يشبهون الشىء المقدس عند إنسان بقولهم: His Meca

وقد حاول أكثر من ملك أن يحول الناس عن الكعبة ففشل حاول هذا ملك حِمْيَر وهو عائد من حرب الأوس والخزرج بيثرب وَهَم بهدمها فمنعوه فكساها وعاد الى بلاده.

وبنت قبيلة غطفان حرما فى القرن الأول قبل الهجرة بقصد تحويل العرب إليها فحاربها زهير بن حباب وأعاد إليها مكانتها بعد حرب ضارية.

وفى نحو سنة ستين قبل الهجرة حاول أبرهة أن يهدم الكعبة فلما وصل الطائف، بعث من ساق إليه أموال أهل مكة وفيها مائتا بعير لعبدالمطلب فأتى أبرهة وطلب إليه ردها فقال أبرهة : (أتكلمنى فى إبلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أننى جئت لهدمه فقال عبدالمطلب) (أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه) فأعطاه أبرهة إبله فساقها هديا. وزحف أبرهة إلى مكة ومعه فيل فجعل الله كيدهم فى تضليل (وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول). وهذه الآيات تستقطب قصصا طويلة غريبة رواها الألوسى فى كتابه (بلوغ الأرب).

وقبل بعثته، صلى الله عليه وسلم، بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة فأجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها وكان الذى يبنيها لهم «باقوم الرومى» بمساعدة نجار مصرى. فلما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا.... كل قبيلة تحاول أن تستأثر بهذا الشرف.

وفى دماثة وكياسة وذكاء ولطف مدخل، طرح عليهم الشاب ابن الخامسة والثلاثين من سنيه، أن يطرحوا رداء يوضع عليه، الحجر الأسود، وطلب إلى القبائل أن تمسك بأطرافه ووصلوا به جميعا إلى مكانه من البناء فى الركن الشرقى... وهنا تقدم ووضعه بيده الشريفة فيه... فشكروا له صنيعه.

ولما ولى عبدالله بن الزبير أمر مكة، سير يزيد بن معاوية إليه، الحصين بن نمير فى عسكر كثيف فالتجأ بن الزبير إلى المسجد الحرام فضربه الحصين بالمنجانيق فأصاب الكعبة وأحرق كسوتها مع بعض أخشابها فإذا بالموت يقضى على يزيد ويرجع الحصين عن مكة ويعيد ابن الزبير بناء الكعبة...

للبيت رب يحميه.

يقول عز وجل : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) . البقرة ١٢٥

ويقول جلت آياته: (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . آل عمران ٩٦، ٩٧

ويقول سبحانه: (جعل الله، الكعبة البيت الحرام) . المائدة ٩٧

ويقول تباركت أسماؤه: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) . الحج ٢٦

ويقول عزت صفاته: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وقال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم) .

ويقول خير القائلين: (فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . سورة قريش ٣، ٤

ومن أصدق من الله قيلا

نريد تكتلا عربيا متعاونا متناغما راشدا رشيدا يحل فى حيدة تامة المشكلات والقضايا قبل تصعيدها. تكتلا وراءه بنك معلومات وإحصاءات ودراسات. تكتلا فى الملمات، يتخذ قرارا موحدا ليحسب لنا الأعداء الحساب كل الحساب.

ومع هذا نحن نحمد للفاتيكان الوثيقة التى أبرأ فيها ساحة الإسلام مما ألصق به من جانب الغرب سنة ١٩٧٦م.

نحن لانريد صراعا أو حروبا. نريد تفاهما يتبادل معنا الاحترام والتقدير ولاتطوير فى العلاقات وصولا إلى لحظة تنوير تسطع فيها الحقائق وينتفى معها الافتئات والعداوات والتحيفات ليهدأ الصراع وتخف أسباب النزاع ويفئ الشرق والغرب إلى الرشاد والسداد.